

البعد التقريري™ في السيرة النبوية™: قراءات واستشارات

البعد التقريري™ في السيرة النبوية™: قراءات واستشارات

علي بن مبارك

أستاذ جامعي - تونس

يثير عنوان هذا البحث عدّة إشكاليات، فالحديث عن بعد تقريري في السيرة النبوية قد يثير حفيظة بعض المتحفّطين، فالتقريب بين المذاهب الإسلامية مشغل معاصر ومصطلح مستحدث ظهر في العصر الحديث استجابة إلى سياقات تاريخية مختلفة، فكيف نتحدّث عن مفهوم معاصر من خلال مدوّنة حديثة قديمة؟، قد نجد مبررات تتعلّق بهذه الاحترازات، ولكنّنا تعمّدنا تناول هذا الموضوع بصيغته التي أوردناها لعدّة اعتبارات، فقد أصبحت سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلم توطّف من أجل تكريس الفرق والخلاف، وأصبح عليه الصلاة مرجع من يقول بفرقة المسلمين وتكفيرهم بعد أن كان لقرون مديدة رمزاً للوحدة والتعاون، وهذا الأمر يدعو إلى الاستغراب، فكيف يصبح الرسول الصادق الأمين والمتسامح الحليم داعية على لسان بعض الأدعية إلى التمييز الدّيني والمذهبي والإقصاء بكلّ أنواع، حاشا الرسول من ذلك، ولكنّ بعض المتعصّبين والمتشدّدين من علماء الدين وعامّة الناس ينتخبون من سيرة الرسول صلّى الله عليه وسلم أقوالاً وأفعالاً يعتمدونها سلحاً ضدّ تلك الفئة أو ذلك المذهب أو هذا الفكر، إنّهم يعتمدون منهجاً تأويلاً منحرفاً، يعيّدون من خلاله تشكيل صورة الرسول بحسب أهوائهم وغاياتهم، ولذلك عمل روّاد التقريب على تصحيح ما شوّه وإصلاح ما أفسد وإظهار ما تحتفظ به السيرة النبوية من كنوز ومنارات يمكن الاهداء بها لتحقيق التواصل بين المسلمين وترسيخ ثقافة التعاون والتآزر.

ونظراً إلى صعوبة الإلمام بآراء كلّ روّاد التقريب في هذا المجال، سنركز على تجربة فكرية مثلّها محمد فريد وجدي أحد روّاد جماعة التقريب بالقاهرة^[1]، ثمّ بعد ذلك سنتحدّث عن بعض القيم التقريبيّة التي يبشر بها الرسول صلّى الله عليه وسلم وجعلها نبراساً يهتدى به المسلمون في كلّ زمان ومكان.

أدرك رجال التقريب الأوائل ممّن أسّوا دار التقريب بالقاهرة وأصدروا مجلة رسالة الإسلام^[2] شخصية تدرك قيمة ما يوحّد إليه من أصول العلم وأسرار الحكمـةـ رجلـ يستطـيعـ بـقـوـةـ إرادـتهـ وحسنـ قـيـادـتهـ أـنـ يـجـمعـ بين القلوب المتناـفةـ، والنـفـوسـ المـتـناـكـرـةـ، رـجـلـ وـهـ مـنـ الذـكـاءـ، وـمـنـ حـسـنـ الـمـدارـكـ، مـاـ يـعـرـفـ بـهـمـكـانـ اللـيـنـ وـالـشـدـةـ مـنـ النـفـوسـ فـيـضـعـ كـلـ مـنـهـاـ مـوـضـعـهـ مـنـ وـكـلـ إـلـهـ أـمـرـ حـمـعـهـمـوـقـيـادـهـمـ، رـجـلـ لـاـ يـشـتـهـ عـلـيـهـ الحقـ بـالـبـاطـلـ مـهـمـاـ كـانـ الفـارـقـ ضـئـيلـاـ بـيـنـهـمـاـ فـيـخـفـيـ عـلـيـهـ حدـ كـلـ مـنـهـمـاـ، رـجـلـ حـاضـرـ الـبـدـيـهـةـ، ثـاقـبـ الـبـصـيرـةـ، يـسـطـعـ أـنـ يـدـرـكـاـ وـرـاءـ الـمـطـاـهـرـ الـخـلـابـةـ مـنـ قـوـيـ كـامـنـةـ فـيـقـيـهـاـ، أـوـ يـسـتـفـيدـ مـنـهـاـ عـلـىـ

حسناً لحال الطارئة، والشئون المفاجئة"[3]، ومن الحكمة اليوم أن نأخذ من السيرة النبوية ما يسّر
الود والتودّد بين المسلمين ويسهّل التقارب بينهم، لقد استطاع الرّسول أن يكون أمّة ويقود أمّة
شعاراتها " الأخوة في الدين" و"لا يؤمن أحدكم حتى يحب أخيه ما يحب لنفسه". أن سيرة الرّسول صلّى
عليه وسلّم خير مسلك يعتمد في توحيد المسلمين والتقرّب بينهم ودفعهم دوما إلى المحبّة
والتفاهم والتعاون، لقد وجدوا في السيرة النبوية مرجعا يعتمد وطريقا يسلّك، ولعلّ من أهمّ من كتب
في سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم من منظور تقريريّ "توضيحيّ" عضو جماعة التقرّب محمد فريد وجدي
الذى كتب سلسلة من المقالات نشرها في مجلّة "رسالة الإسلام" تحت عنوان "الشخصيّة المحمدية"، وعكست
هذه المقالات حبّا للرسول صلّى الله عليه وسلّم لا يوصف وعشقا لا مثيل له، فالرسول الأعظم "

أرسله الله تعالى مبشّراً ونذيراً و"أتم على يديه تأليف أمّة مثالبة في عشر سنين، وهي الأمّة التي
أعدّها الحق لنشر الدين الحق"^[4] والعملية إلا خصّه من توحّيّاته بما يناسبه من لفت النظر إليه
وبيان الحكم منه ووضع الحدود له ونحو الآراء المضللة عنه^[5]، وكان الرّسول يخاف على الأمّة خوفه
على نفسه فيحذّر المسلمين من ويلات التقاتل والخلاف والتفرّق ويدعوهم دائما إلى التواصل والتعاون
على البرّ والتقوى، كان الرّسول الأعظم صلّى الله عليه وسلّم يدرك أنّ أمّة الإسلام ستتصيّبها بعد وفاته
أسهم الفتن والصراعات، ولذلك كان يحذّر ويحرّم دم المسلم على المسلم مهما كانت الأسباب أو
المبرّرات، ولم يترك محمد (صلّى الله عليه وسلم) مجالا من مجالات النّشاط الروحي والعقلاني

كان الرّسول الأعظم يؤمن بأنّ "مثّل المؤمنين في تواضعهم وتراحمهم، كمثل الجسد إذا اشتكتى عضو
منه تداعى سائره بالحمى والسهر"، ولذلك أكّد على مفهوم الجماعة ورأى أنّ "الإسلام أحوج إلى الجماعة
من الجماعة إلى الإسلام". وهو قول يدلّ على نظرية عميقه فيفلسفه الاجتماع^[6] محمد فريد وحدى مجموعة
من الأحاديث النبوية تؤكد أنّ المسلم حصن لأخيه المسلم ي Favorize ويدافع عنه ويحفظ دمه وكرامته
وعرضه وماليه، ومن بين هذه الأحاديث ذكر: كان الرّسول الأعظم يفهم سنن تكوّن الجماعات وتطوّرها
وثباتها زمان الآفات والنكبات، ولذلك كان يدرّب صحابته على مثل هذه المخاطر، وفي هذا السياق عرض

- "مثّل المؤمنين في تواضعهم وتراحمهم، كمثل الجسد إذا اشتكتى عضو منه تداعى سائره بالحمى
والسهر".

- "من لم يهتم للمسلمين فليس منهم".
- "المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه ببعضه".
- "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه".
- "من فارق الجماعة شبراً فمات، فميته جاهلية".
- "نظر الرجل لأخيه على شوق، خير من اعتكاف سنة في مسجدي هذا".
- "إصلاح ذات البين خير من عامة الصلاة والمصوم".
- "من قضى لأخيه المؤمن حاجة فكانا خدم الله عمره".
- "من مشى في حاجة أخيه ساعة من ليل أو نهار، قضاها أو لم يقضها، كان خيراً له من اعتكاف شهرين".
- "ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والمصدقة؟ قالوا بلي. قال إصلاح ذات البين. وفساد ذات البين هي الحالقة".
- "من زحزح عن طريق المسلمين شيئاً يؤذهم، كتب الله له به حسنة، ومن كتب له حسنة أوجب له بها الجنة":
- "من أقر عين مؤمن أقر الله عينه يوم القيمة".
- "إذا التقى المؤمنان فتصافحا، قسمت بينهما سبعون مغفرة، تسع وستون لأحسنهما بشراً".

وندرك من خلال هذه الأحاديث أن دعاء التقرب وجدوا في سيرة الرسول الأعظم خير مشجّع على فكرة التقرب والوحدة الإسلامية، وما أحوجنا اليوم إلى مثل هذا الفكر التنويري الذي يدعو إلى نبذ الحقد والتعصب وحب الذات، فالآمة الإسلامي لن تكون قوية ومزدهرة إذا لم تلم شمل المسلمين المنتسبين إليها، لقد كانت آمة الإسلام أمّة متطرفة ومتخصّصة ومزدهرة على كل الأصعدة لأن المسلمين كانوا كالجسد الواحد، كلمتهم واحدة وموقفهم واحد، يحترمون بعضهم بعضاً، ويقبلون بالاختلاف والتعدد والتنوع، يجعلون من الاختلاف في الأفكار مصدر قوّة وإبداع ويحوّلونه طريقاً إلى السمو والفوز في الدنيا والآخرة، كل هذه الأحاديث وكثير من أمثالها، مما ليس له نظير في دين من الأديان، ولجاجة على لسان واحد من المصلحين الاجتماعيين جعلت من جماعة المسلمين أمة كرجل واحد، وإذا بلغت آمة هذا الحد من التضامن والتعاون، فلا يمكن أن تنهّلأو تختل بتغيير الحوادث العادلة، ويكون لا بد لحدوث ذلك الانحلال من عواملأقوى منها" [7].

ونستغرب اليوم من وجود حالات من العنف بين المسلمين تصل حد التقاتل والتقتيل والتشريع، إذ أصبح من السهل اليوم أن ينعت المسلم بأزمه فاسق وزنديق ومبتدع وكافر، فينبذ ويعزل ويستهدف في ماله وعرضه وأهله رغم إيمانه وانتسابه تصرّفاً لا تلميحاً إلى ملة الإسلام، يعتقد البعض من

المؤمنين أذّهم أوصياء على الدّين محتكرون للحقيقة ناطقون باسمها دون بقية البشر، والحال أنّ كل جماعة إسلاميّة تمثّل وجهة نظر محترمة لا بدّ من قبولها وإن خالفت رأينا، ومن الخطير أن يتحول الاختلاف إلى خلاف وأن يستحيل من نعمة إلى نعمة ومن رحمة إلى مشكل يهدّم صرح الإسلام وينسف قيمه، والأخطر من ذلك أن يصبح دم المسلم مباحاً، فيقتل المسلمين وهو سجّد أو ركّع من قبل السنّيّ، وكم هو مفزع أن تشاهد مساجد تفجّر هنا وهناك، فيقتل المسلمين وهو سجّد أو ركّع من قبل إخوانهم في الدّين، ولا جرم لهم اقترفوه غير أذّهم خالفو القاتلين في المذهب أو الرّأي أو الاجتهاد، أصبحنا اليوم أصحوكة أمام الغرب وبقية الشعوب، فهم يتحجّون على قتل القطط والكلاب وبقية الحيوانات، ويؤسّسون من أجل ذلك منظّمات وجمعيات تدافع عن الحيوانات وحقّهم في الحياة، وإذا اعتدى رجل على غيره بسبب اختلافه معه في الدّين أو الفكر يتحرّك المجتمع السياسي والمدني فيفتحّ ويرفض ويندّد، وتقام الاعتصامات والمظاهرات، لأنّ احترام الآخر وإن كان قطّاً خطّ أحمر لا يمكنتجاوزه.

ولا ندرى كيف يفهم هؤلاء القتلة مفجّري المساجد سيرة الرّسول صلّى الله عليه وسلم؟ كيف يقتدون به ويمارسون ما حرّمه وحدّر منه؟ كيف يجعلون من حلم الرّسول وتسامحه عنفاً وترهيباً؟ حاشا الرّسول أن ينتسب إليه من يقتل أخاه المسلم، فمن قال بالشهادة وصرّح بأذنه مسلم لا يجوز قطّ تعنيفه أو تقتيله، بل لا يجوز فعل ذلك حتّى مع من خالفا الدين والعقيدة، فلا إكراه في الدّين، وحرّية المعتقد مصانة في الإسلام، ودم الإنسان مصان في ديننا الحنيف مهما كان معتقده أو جنسه أو طبقته الاجتماعية، لقد حرّم الله تعالى قتل المؤمن: "وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَاجْزِأُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَ لَهُ عَذَابًا" [٩] أبا عطّيّما "[٨] إِلَّا مَنْ مَاتَ مُشْرِكًا، أَوْ مُؤْمِنٌ قَاتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا" [٩] أبي سعيد الخدوري "وَأَنَّهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "لَوْ أَنَّ أَهْلَ السَّمَاءِ وَأَهْلَ الْأَرْضِ اشْتَرَكُوا فِي دَمِ مُؤْمِنٍ لَا كَدَّهُمُ اللَّهُ فِي الدَّارِ" [١٠] القتل مؤمن أعظم عند الله من زوال الدنيا" و"لزوال الدنيا أهون على الله من قتل رجل مسلم" [١١].، فمن المفزع حقيقة أن يقتل مسلم وتباح دماءه لأنّه كان مختلفاً في الفكر أو المذهب، وكان الرّسول صلّى الله عليه وسلم لا يتردد في الكشف عن هول هذا الأمر و بشاعة هذا الحرم، فكان يردّ "والذي نفس بيده، وندرك من خلال هذا الحديث النبوي" بشاعة قتل المؤمن، إذ اعتبره الرّسول صلّى الله عليه وسلم ذنباً، والذنب حرم بتطهير إقامة الحدّ والعدل في الدنيا وينتج عنه غصب الله وسوء المآب في الآخرة. وعن، وأكّد الرّسول الأعظم هذا التوجّه الإنساني الحضاريّ، فقال : "كُلُّ ذَنْبٍ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَغْفِرَهُ ،

نحتاج اليوم إلى الاقتداء بسيرة الرسول صلّى الله عليه وسلم علّنا نذلل الصعوبات ونختار الأزمات، أصبح الرسول بيننا غريباً، لا نهتدي بهديه ولا نأخذ بتوجيهها ونرشاداته، وهو النبي المعلم والرسول المرشد، نحتاج اليوم إلى حكمة الرسول وعدله في زمن غابت فيه الحكمة واحتلّ فيه العدل، علّمنا الرسول صلّى الله عليه وسلم أن "الMuslim أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه و من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته و من فرج عن مسلم كربة فرج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيمة و من ستر مسلماً ستره الله يوم القيمة"، فالأخوة سند الإسلام والمسلمين، وتعني الأخوة أن يحبّ المؤمن لأخيه المؤمن ما يحبّ لنفسه، وأن يخاف عليه خوفه على نفسه وأهله، ولذلك علّمنا رسول الإسلام أن "حق المسلم على المسلم ست : إذا لقيته فسلم عليه وإذا دعاك فأجبه وإذا استنصرك فانص له وإذا عطس فحمد الله فشمته وإذا مرض فعده وإذا مات فاتبعه"، وتعتبر هذه القيم النبوية منارة يمكن الاقتداء بها، فالرسول الأعظم كان مدرسة في أساسيات التواصل البشري وأخلاقيات الحوار بين الأفراد والجماعات، كان صلّى الله عليه وسلم نموذجاً في التعامل مع المخالف في الدين والمعتقد، ولنا في قصصه مع اليهود والمسحيين وال MSR كين وتسامحه معهم وصفحة عنهم غير مثال عن ذلك.

نحتاج اليوم إلى قراءة السيرة النبوية الشريفة من جديد، فالقراءات القديمة أحاديث مشبوبة ومورّطة في صراعات مذهبية موهومة، فكلّ جماعة إسلامية أو فرق أو نحلة أو مذهب شكّلت السيرة بحسب أهوائها وغاياتها السياسية والإيديولوجية، فانتخب من الأحاديث النبوية ما يتماشى مع أفكار الجماعة وأساسيات المذهب، وتعمّد آخرون تحريف الأحاديث أو إبداع أحاديث لم تكن موجودة أو تصحيح أحاديث ضعيفة ومشكوك فيها ونشرها بين الناس على أنها حقائق مطلقة لا تقبل التشكيك، عملت كلّ جماعة على توظيف السيرة النبوية في صراعها المذهب والكلامي والفكري، وأصبحنا أحياناً نجد أنفسنا أمام أحاديث متباعدة وربّما متناقضة في بعض الأحيان، ويدفعنا هذا الأمر إلى التفكير الجدي في إعادة النظر في التراث الحديثي وتنقيته مما شابه من أمراض مذهبية علقت به في عصور الاتّباع والتقليد والتراجع الحضاريّ.

[11] - تأسست "جماعة التقرير" بالقاهرة سنة 1946، وترأسها محمد علي علوة باشا (تـ 1375 هـ ، 1956) وقادها مجموعة من العلماء من قبيل عبد المجيد سليم (تـ 1374 هـ ، 1955) و محمد مصطفى المراغي (1364 هـ ، 1945م) و مصطفى عبد الرزاق (تـ 1366 هـ ، 1946م) محمود شلتوت (تـ 1383 هـ ، 1963) و محمد المدني (تـ 1388 هـ ، 1968م) وعلي الخفيف (تـ 1398 هـ ، 1891 – 1978م) و عبد العزيز عيسى (تـ 1415 هـ ، 1994م) وآية آغا حسين البروجردي، محمد تقي الدين القمي، محمد آل حسين آل كاشف الغطاء، وشرف الدين الموسوي، محمد جواد مغنية، مصدر الدين شرف الدين.... وتولّى محمد تقي القمي الأمانة العامة للجماعة، وتوقفت دار التقرير عن النشاط سنة 1979.

[12] - أصدرت دار التقرير بالقاهرة مجلة "رسالة الإسلام" في عددها الأول سنة 1949، وتوقفت المجلة عن الصدور سنة 1972 (العدد 60).

[13] - محمد فريد وجدي ، الشخصية المحمدية ، مجلة رسالة الإسلام ، الطبعة الثانية ، نشرها كلّ من مجمع البحوث الإسلامية بالستانة الرضوية المقدسة ، ومجمع التقرير بين المذاهب الإسلامية ، 1999 ، مجلة عالمية تصدر عن دار التقرير بين المذاهب الإسلامية بالقاهرة ، (مطبعة مخيم ، شارع فاروق) ، ص150

- محمد فريد وجدي ، الشخصية المحمدية تحت ضوء المقررات النفسية الحديثة: بناء المجتمع الإسلامي [4] ، مجلة رسالة الإسلام، الطبعة الثانية، السنة 2، عدد 8، أكتوبر 1950، جمادى الآخرة 1369، ص 368

- محمد فريد وجدي ، المرجع نفسه، ص 370 [5]

- محمد فريد وجدي ، المرجع نفسه، ص 370 [6]

- محمد فريد وجدي ، المرجع نفسه، ص 372 [7]

[9]- رواه أبو داود (4270) والنسائي (3984)

[10]- رواه الترمذى (1398)

[11]- أخرجه : الترمذى (1395)